تحقيق الجاحظ

— ٥ —

« الاستعانة بالعقل »

—«»—

ومن المواطن التي يظهر فيها مقدار دقة فطنته وثقوب عقله موطن الشك فما تنسى قوله في صدر كلامنا على تحقيقه :

« ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميلَ وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له » .

وهذا الشك قريب من شك (ديكارت) الذي كنت اشرت اليه فقد كنت ذكرت لكم ان (ديكارت) يشك في كل شيء وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الاحلام ولكن شكه هذه لا يشبه شك غيره من الفلاسفة فهو يشك في كل شيء ، فقد يفرض ان العالم لا حقيقة له على أمل ان يصل الى حقائق يثبتها البرهان فالشك في مذهبه سبيل الى اليقين .

فاذا قابلنا بين هذين الرأيين : بين رأي الجاحظ وبين رأي (ديكارت) وجدنا فيهما بعض التقارب فالجاحظ يقول : اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له : معنى هذا كله : اعرف الشك لتعرف به اليقين فالشك في نظره سبيل الى اليقين فهو لا يشك في الامور من اجل الشك وحده وانما يشك فيها حتى يصل الى يقين قاهر وكذلك (ديكارت) فانه لا يشك في الامور من اجل الشك وحده وانما يشك فيها على امل ان يصل الى حقائق يثبتها البرهان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
w-w w . a l u k a h . n e t
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكيف يلجأ الجاحظ الى مجرد الشك وهو الذي يقول [١] :

« واعلم ان من عوّد قلبه التشكك اعتراه الضعف » .

فلننظر بعد هذا في أنماط من أقاويله التي ظهرت عليها آثار الشك كالكلام على رؤوس الحيات او كالكلام على لعاب الافاعي او كالكلام على سلامة الفراريج على الافاعي او كالكلام على خلق الفار او كالكلام على اخراج الولد رأسه من بطن أمه .

فمرة كان يشك في الامر و ينفيه لان العلم لايحققه . ومرة كان يشك فيه و يبين السبب الذي من اجله استفاض هذا الامر . وحيناً كان يشك فيه من دون ان يحاول نفيه بالحجة او يوضح علة من علل شيوعه وحيناً كان يشك فيه فيحار في امره حيرة قد لا يجد لنفسه مخرجاً منها ثم يجد هذا المخرج فيرد الامر لانه لم يثبته ظاهر العيان او متظاهر الاخبار .

فمن المواضع التي ظهر شكه فيها قوله [٢] :

وزعم بعض المفسرين ان السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا سأل ربه الفرج فأمره ان يأمر الأسد فيعطس فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى خرج الذكر من المنخر الأيمن والانثى من المنخر الايسر فكفاهم مؤنة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهم شكوا ذلك الى نوح فشكى الى الله تبارك وتعالى فأمر ان يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير فكفوهم مؤنة رائحة ذلك النجو .

وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص وقد انكرنا ان يكون الفار تخلق الا في ارحام أناثها من اصلاب ذكورها » .

فالجاحظ ينكر خلق الفار الا في ارحام أناثها من اصلاب ذكورها و يشك في ضد هذا الامر لان العلم لا يؤيده .

ومن هذه المواضع التي ظهرت فيها آثار الشك قوله [٣] :

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني الصفحة ٨٤) .

(٢) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ١٠٦ .

(٣) » » » الرابع » ٥٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وقد زعم صاحب المنطق انه قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم ان ذلك حق فقلت له : فمن اين جهة الرأسين تسعى ومن ايهما تأكل وتعض فقال : فأما السعي فلا تسعى ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل واما الاكل فانها لتمشي بفم وتتغدى بفم واما العض فانها تعض برأسيها معاً فاذا به اكذب البرية .

وهذه الاحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها وفي التهويل امرها ... »

فبعد ان شك الجاحظ في ان يكون للحية رأسان أخذ يقلب النظر في استفاضة هذا الخبر فوجد ان العلة في ذلك الرعب والتهويل .

وبين هذه المواضع قوله [1] :

« وزعم احمد بن غالب قال : باعني حوّاء ثلاثين افعى بدينارين واهدى الي خمساً اصطادها من قبالة القلب في تلك الصحاري على شاطئ دجلة قال : واردتها للترياق فقال لي حين جاءني بها : قل لي من يعالجها ، فقلت فلان الصيدلاني ، فقال : ليس عن هذا سألتك قل لي : من يذبحها ويسلخها قال : قلت هذا الصيدلاني بعينه ، قال : اخاف ان يكون مغروراً من نفسه ، انه والله ان اخطأ موضع المفصل من قفاها وحركته اسرع من البرق فان كان لايحسن ولا يدري كيف يتغفله فيقره نقرة لم يفلح بعدها ابداً ولكني سأتطوع لك بان اعمل ذلك بين يديه قال فبعثت اليه وكان رأسه الحونة فيغفل الواحدة فيقبض على قفاها باسرع من الطرف ثم يذبحها فاذا ذبحها سال من افواهها لعاب ابيض فيقول : هذا هو السم الذي يقتل ، قال : فجالت يده جولة وقطرت من ذلك اللعاب قطرة من طرف قميص الصيدلاني قال : فتفشى ذلك القاطر حتى صار في قدر الدرهم العظيم ثم ان الحواء امتحن ذلك الموضع فتهافت في يده وبقيت الافاعي مذبوحة في الطست يكد بعضها بعضاً حتى امسينا ، قال : وبكرت على ابي رجاء الى باب الجسر أحدثه بالحديث فقال لي : وددت اني رأيت موضع القطرة في قميص الصيدلاني ، قال : فوالله ما رمت حتى مرّ معي الى الصيدلاني فأريته موضعه . واصحابنا يزعمون ان لعاب

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع الصفحة ٣٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأفاعي لا يعمل في الدم الا ان احمد بن المثنى زعم ان من الافاعي جنساً لا يضر الفراريج من بين الاشياء .

ولا ادري اسمع الخبر بن ابعد ، اخبر ابن غالب في تفسيخ الثوب او خبر ابن المثنى في سلامة الفروج على الافعى » .

فهنا يتبين لكم ان الجاحظ اكتفى بانكار الخبر دون ان يبين سبباً من الاسباب .

ومنها قوله [1] :

« وقد زعم صاحب المنطق ان ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الاسنان لطول مكثه في بطنها وهذا جائز في ولد الفيل غير منكر لان جماعة نساء معروفة الآباء والابناء قد ولدن اولادهن ولهن اسنان نابتة كالذي رووا في شأن مالك بن انس ومحمد ابن عجلان وغيرهما وقد زعم ناس من اهل البصرة ان خاقان بن عبد الله بن الاهتم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهراً وقد مدح بذلك وهجي وليس ذلك بالمستنكر وان كنت لم ار قط قابلة تقر بشيء من هذا الباب وكذلك الاطباء وقد رووه كما علمت .

ولكن العجب كل العجب ماذكروا من اخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ثم ادخالها بعد الشبع والبطنة ولابد اكرمك الله لما اكل من نجو فان كان بقي الولد يأكل ولا يروث فهذا عجب وان كان يروث في جوفها فهذا أعجب وانما جعلناه يروث حيث سموه حماراً وهذا مما ينبغي لنا ان نذكره في خصال الحمار اذا بلغ ذلك الباب ولا أقر ان الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه ولست اراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا في الطبيعة وارى جوازه مرهوباً غير مستحيل الا ان قلبي ليس بقبله وليس في كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات المحمودة ولم نجد القرآن ينكره والاجماع يدفعه والله هو القادر دون خلقه ولست ابت بانكاره وان كان قلبي شديد الميل الى رده وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ولا يعرف الا بالعيان الباهر والخبر المتظاهر » .

فالجاحظ في مثل هذا المقام يعمد الى رد الخبر لان العيان الباهر لم يثبته . هذا ما يتعلق ببعض خصائص شكه فلنلجأ الى النظر في العلل التي يجدها لأمر من الامور .

(١) كتاب الحيوان الجزء السابع الصفحة ٤٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ففي هذا النوع يتبين لنا مقدار تغلغل عقله في الأسرار ومبلغ توفيقه في الإحاطة بهذه الاسرار فلنتخب موضعاً اوموضعين من المواضع التي نستدل بها على نفوذ عقله .

مرة يشهد الامر فيدوّنه كما يدوّن عالم الطبيعة حادثة من حوادثها ثم يستنبط من هذا الأمر قانوناً عاماً يلجأ اليه كلما جدّ الكلام على الامر الذي دوّنه على نحو استنباط علماء الطبيعة القوانين العامة من الامور الصغيرة التي يجرّبونها ويعاينونها واليكم مثلاً لذلك[1]:

« وربما اكل الانسان الجراد او بعض مايثبه الجراد فتسقط من يده الواحدة اوصدر الواحدة وليس يرى بقربه ذرة ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل فلا يلبث ان تقبل ذرة قاصدة الى تلك الجرادة فتروعها وتحاول قلبها ونقلها وجرها فاذا أعجزتها بعد ان بلغت عذراً مضت الى جحرها راجعة فلا يلبث ذلك الانسان ان يراها قد اقبلت وخلفها كالخيط الاسود الممدود حتى يتعاونّ عليها فيحملنها فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الانسان الجائع ثم بعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة واكثر من مائة مرة وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل مايكون ضعفه مراراً غيرها وعلى انها لا ترضى باضعاف الاضعاف الا بعد انقطاع الانفاس .

فان قلت وماعلم الرجل ان التي حاولت نقل الجرادة فعجزت هي التي اخبرت صويحباتها من الذر وانها كانت على مقدمتهن ، قلنا : لطول التجربة ولانا لم نر ذرة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها ثم رأيناها راجعة الاّ رأينا معها مثل ذلك وان كنا لا نفصل في العين بينها وبين اخواتها فانه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا وعلى أننا لم نر ذرة قط حملت شيئاً او مضت الى جحرها فارغةً فتلقاها ذرة الاّ وافقتها ساعة وخبرتها بشيء فدلّ ذلك على انها في رجوعها عن الجرادة انما كانت لأشباهها كالرائد لا يكذب اهله » .

ذرة تأخذ عينها جرادة فتحاول نقلها فاذا عجزت عنها ذهبت الى أخواتها فاستعانت بهنّ على حملها . هذا هو الامر الصغير الذي عاينه الجاحظ ، من هذا الامر الذي عاينه استخرج قانوناً عاماً وهذا هو القانون : كل ذرة حاولت نقل جرادة اوغيرها فعجزت عنها استدعت صويحباتها فتعاونّ على نقل هذه الجرادة .

وقد كنت بينت لكم ان الجاحظ لم يستنبط من تجربته وعيانه وسماعه قوانين عامة ولكنه

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع الصفحة ٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في هذه المرة لم يقصر في استنباط القانون من الامر الصغير ولو فعل هذا الفعل في كل الامور التي جرّبها او عاينها لما نقص تجربته وعيانه شيء ولكان في هذه التجربة وهذا العيان شبه علماء هذا العصر .

ومرةً يمعن في الكشف عن غرائز الحيوان فلا يعاين حركة من حركاته كالانقياد او كالعصيان مثلاً الاّ وضّح اسرار هذه الحركة مصيباً في توضيحه شاكلة الصواب .

فمن كلامه على سلاح اصناف الحيوان[1] :

« وانما تتقرب الشاة بالمتابعة والانقياد للسبع ، تظن ان ذلك مما ينفعها فان الأسد اذا اخذ الشاة لم تتابعه ولم تعنه على نفسها فربما اضطر الاسد الى ان يجرها الى عرينه ، واذا اخذها الذئب عدت معه حتى لا يكون عليه فيها مؤنة وهو انما يريد ان يحميها عن الراعي والكلب وان لم يكن في ذلك الوقت هناك كلب ولا راعٍ فيرى ان يجري على عادته ، وكذلك الدجاج اذا كنّ وقّماً على اغصان الشجر او على الرفوف فلو مرّ تحتها كلب وسنور وكل ثعلب وكل شيء يطالبها فاذا مرّ ابن آوى بقربها لم يبق منها واحدة الا رمت بنفسها اليه لأن الذئب هو المقصود به الى طباع الشاة وكذلك شأن ابن آوى والدجاج يخيل اليها ان ذلك مما ينفع عنده وللجبن تفعل كل ذلك ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد ليحضر ببدنه يظن اجتهاده انجى له وانه اذا كان على ظهر الفرس أفلّ كداً وان ذلك اقرب الى الهلاك ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن اراد انقاذه حتى يغرقه ويغرق نفسه وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم وانهما انما هما في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجب ممن يشرب الدواء من يد أعلم الناس به فاذا اصابته شقيقة او لسعة عقرب او اشتكى خاصرته او اصابه حُصْر او أُمْر شرب الدواء من يد اجهل الخليقة او جمع بين دواءين متضادين » .

فما انقادت الشاة للسبع او للذئب ومارمت الدجاجة بنفسها الى ابن آوى الاّ للجبن فالجاحظ يظهر لنا في هذا المقام في صورة العالم الواقف على غرائز الحيوان .

او قوله[2] :

---

(١) كتاب الحيوان الجزء السادس الصفحة ١٢٥ .

(٢) » » » » » » »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وليس شيء من صنف الحيوان اردى حيلة عند معاينة العدو من الغنم لانها في الاصل موصولة بكفايا : الناس فأسندت اليهم في كل امر يصيبها ولولا ذلك لأخرجت لها الحاجة ضروباً من الابواب التي تعينها ... » .

* * *

هذا ماعنّ لنا من الكلام على ناحية جليلة من نواحي الجاحظ واعني بها ناحية العلم وقد احببت قبل ان انتقل الى الكلام على نواحي دينه اوتهكمه اواديه ان اجمل القول في مذاهب تحقيقه حتى تبقى صورته من هذه الجهة ماثلةً لأذهاننا قائمةً في صدورنا .

ارادت طائفة ان لاتجد في الجاحظ الا ناحية واحدة وهي ناحية الفن فمارأت في بعض كتبه وخاصة في كتاب الحيوان الاخصائص فنية وهذا الرأي ناشيء عن امرين : اما عن جهل بمذاهب التحقيق في العلم واما عن تهاون بدراسة الجاحظ من كل اطرافه فليس من المعدلة في شيء ان ننظر الى الجاحظ من ناحية واحدة وان نهمل ناحية اجل وهي ناحية العلم .

ان ماحاضرتكم به حتى اليوم من بعد التمهيد والتوطئة مما لا بدّ منه قد صوّر لكم الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر .

همّ العالم التنقيب عن الحقيقة وقد يذهب في هذا التنقيب مذاهب مختلفة على حسب العلم الذي ينصرف اليه وقد اخرج الجاحظ مكنونه في التنقيب عن هذه الحقيقة وأظن ان تجريبه على اصناف من الحيوان كالحيات والافاعي والخنافس والعقارب والجرذان لم يكن لمجرّد اللهو والعبث واي لهو في عيان العقارب ام اي عبث في مشاهدة الافاعي فاذا قطع الجاحظ طائفة من اعضاء الحيوان او القى عليه ضرباً من السم او ذبحه وفتّش جوفه وقانصته اودفنه في بعض النبات اوذاقه او بقج بطنه اوجمع أضداده في اناء من قوارير او القى عليه مادة من موادالكيمياء فما كان يفعل هذا واشباهه عبثاً وانما كان يرمي الى غايات بعيدة ، انه كان يرمي الى إدراك الحقيقة من ارشد مسالكها .

فمرةً كان يستعين بحواسّه على الوصول الى هذه الحقيقة فيستعين باللمس او بالذوق او بالرؤية او بالشم او بسؤال اهل المعرفة والعلم متوثقاً في كل خبر يسمعه متثبتاً في كل كلام يبلغ اليه حتى يكون على هدىً من امره وحتى يعرض هذه الحقيقة في اوضح معارضها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلا يخامره شك فيها ، واي شك بعد العيان القاهر او الخبر المتظاهر .

ومرة كان يستعين عليها بآلة اكمل من كل آلة وهي آلة العقل .

ولقد أحكم استعمال عقله فرامى دون حياض الحقيقة حتى لا يفسدها شيء من توليد كذاب او من غرائب زور .

فحيناً كان يقف بالمرصاد لكل رجل تحدثه نفسه بخرافة من الخرافات وحيناً كان يحذر الناس من الأباطيل فيدلهم على عيوبها مقتصداً في دلالته لا شتم ولا بذاءة شأن العالم الجليل او يشككهم فيها ثم يخرجهم من ظلمة الشك الى ضياء اليقين .

وكان في بعض الأحوال يلجأ الى توضيح العلل في ابواب العلم فلا يخطئ مواطن الحق .

وفي كل مذهب من هذه المذاهب في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكه وتوضيحه كان الجاحظ يطلع علينا في صورة العالم الذي يعمل عقله في البحث عن الحقيقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net